الفصل الثاني

الصدر السوري الأعظم

منذ وصل حافظ الأسد إلى سُدَّة الحكم في سوريا في السادس عشر من نوفمبر 1970م نظر بحقد لجاره الغربي الصغير لبنان؛ كان يرى أن لبنان جزء اقتطع من سوريا، وبالتالي يجب أن يعود للوطن الأم طَوْعًا أو كَرْهًا، ورغم صحة ادعاء الأسد باقتطاع لبنان من سوريا تاريخيًا، إلا أن الأسد تعامل بعدوانية مع الدولة اللبنانية من منطلق شخصي.

لم ينس الأسد أن ضيق ذات اليد هو ما منعه من تحقيق حلمه بأن يصبح طبيبًا وذلك بعد أن يدرس الطب في الجامعة اليسوعية ببيروت، وعوضًا عن ذلك التحق بالأكاديمية العسكرية في حمص ثم بمدرسة الطيران في حلب ليصير طيارًا وتتغير حياته إلى الأبد، وكانت هذه الحادثة هي بداية الكراهية بين الأسد وبلاد الأَرْز.

زادت كراهية الأسد للبنان من منطلق خوف حافظ على نظامه الأمني القمعي الفاسد مقارنةً بنظام لبنان الديمقراطي المؤسساتي ذي الألوان

السياسية المتعددة والذي تتداول فيه السلطة ولا يعرف حكم العسكريين، على العكس من سوريا التي حكمها ثلة من العسكر ومدنيون يعدون على أصابع اليد.

سبب ثالث لكره حافظ الأسد للبنان هو وجود عائلات سياسية عريقة حكمت لبنان ومنعت تحوله إلى تابع لسوريا مثل آل كرامي وآل ميقاتي وآل سلام وآل الوزان من السنة، وآل الجميل وآل إده وآل بطرس من الموارنة، وآل الحسيني وآل الأسعد من الشيعة، وكانت ذريعة الأسد في هذا الشأن هو أن هذه العائلات تتوارث حكم لبنان،ويالها من سخرية!

فعلى فرض صحة وجهة نظر الأسد،فأفراد هذه العائلات لم تصل إلى الحكم رغم أنف الشعب معلنةً البيان رقم (1) كما فعل مَنْ توافدوا على حكم سوريا منذ حسني الزعيم وصولًا إليه، لكنهم جاءوا باختيار الشعب.

سبب رابع لكراهية الأسد للبنان وهو أنه كان قبلة المعارضين السوريين من ساسة وكتاب عندما يقع انقلاب أو تصبح حياتهم مهددةً في سوريا،وقد عانى الأسد من هذا الأمر عندما هرب رفيقه وابن طائفته محمد عمران إلى طرابلس شمال لبنان، ولم يهدأ له بال حتى اغتاله عام 1972م.

وفي طريقه لتوطيد دعائم حكمه عمل الأسد على نيل دعم الأقليات وكان الدروز من بينهم،فاستقبل في بداية عهده الزعيم السياسي الدرزي اللبناني

كمال جنبلاط واستقبله بحفاوة بالغة، وخلال زيارته عَرَّجَ جنبلاط على جبل العرب بمحافظة السويداء ذات الغالبية الدرزية ليلتقي ببني جلدته من الدروز الذين أكرموا وفادته وعاملوه بما يليق به كزعيم درزي له ثقله،لكن ذلك أقلق الأسد.

أخبر حافظ ضيفه أنه يستقبله كزعيم عربي لبناني وليس كزعيم درزي،ابتلع جنبلاط كلام الأسد لكنه بَيَّتَ النية على رده، وجاءته فرصة الرد في نفس اليوم وذلك بعدما تناول الغداء مع مضيفه في قصر الروضة.

أرسلت المخابرات السورية بيانًا عن الزيارة شطب منه جنبلاط فقرات عدة كان أهمها ادعاء أنه أشاد بالحركة التصحيحية معتبرًا إياها شأنًا داخليًا سوريًا لا علاقة له بها، وكان ذلك بمثابة سكب للماء البارد على رأس الأسد الذي وافق مُرْغَمًا على طلب ضيفه.

ومرةً أخرى يرد جنبلاط الصاع صاعين للأسد بعدما تَقَوَّلَ عليه بما لم يصدر منه، وذلك بعدما رفض جنبلاط إصدار بيان مشترك بين حزبه - الحزب التقدميالاشتراكي- وأمين عام حزب البعث ورئيس الجبهة الوطنية التقدمية المعارضة عبد الله الأحمر.

فوجئ جنبلاط ببيان ملفق أورد مواقف لم يفعلها؛ فانتقد جنبلاط تكوين جبهة يفترض أنها معارضة بينما يرأسها أمين عام الحزب الحاكم ما تسبب للأسد في حرج بالغ.

لكن كراهية الأسد للبنان لم تمنعه من لعب بعض الأدوار الإيجابية فيه بما يخدم مصالحه،ففي أبريل 1973م اندلعت مواجهات دامية بين الجيش اللبناني ومنظمة التحرير الفلسطينية بعدما اغتال الموساد ثلاثةً من قادة المنظمة هم كمال ناصروكمال عدوان وأبو يوسف النجار؛ فطلب صائب سلام رئيس الوزراء من الرئيس اللبناني وقتها سليمان فرنجية إقالة العماد إسكندر غانم فرفض فرنجية، واستقال سلام وتَأَزَّمَ الوضع في لبنان.

أصدر فرنجية أوامره للجيش اللبناني بحصار مخيم تل الزعتر الفلسطيني في بيروت الشرقية، وأعطى أوامره للطائرات اللبنانية بقصف المخيم، ورَدَّت منظمة التحرير بعنف، فوجد الأسد الفرصة مواتيةً للحصول على مكاسب من رحم هذه الأزمة.

أغلق الأسد حدود بلاده مع لبنان للتجارة بين البلدين لأول مرة منذ أغلقها هاشم الأتاسي بعدما فتحها في بداية حكمه كدليل على تحسن العلاقات بين البلدين؛ فأُسْقِطَفي يد فرنجية مما فعله حافظ؛ كون سوريا منفذ لبنان الوحيد على العالم؛ فسعى إلى ترضيته.

ولم يفتحها إلا عندما وافق فرنجية على مطالبه،وعندما توفي الرئيس اللبناني الأسبق فؤاد شهاب أرسل الأسد مبعوثًا للتعزية فيه.

توطدت الصداقة بين حافظ الأسد وسليمان فرنجية،وفي السابع من يناير 1975م قام حافظ الأسد بزيارة لبنان للمرة الأولى في تاريخ علاقات البلدين والتقى فرنجية في شتورا بالبقاع الشمالي مؤكدًا على متانة العلاقة بين البلدين "الشقيقين."

تَحَيَّنَ الأسد الفرصة للإمساك بتلابيب لبنان والخلاص من منظمة التحرير الفلسطينية وتحويل لبنان إلى محافظة سورية تأتمر بأمره، وقد وفرت له الحرب الأهلية اللبنانية فرصةً لا تعوض لإحكام سيطرته على الدولة اللبنانية.

استغل الأسد صداقته بفرنجية ليُسَوِّق نفسه كوسيط بين المتحاربين،وأرسل ساعده الأيمن ووزير خارجيته عبد الحليم خدام ليحل المشاكل العالقة بحيث ينزع فتيل الأزمة، كما استقبل كمال جنبلاط في الشهور الأولى من الحرب، واعتقد الزعيم الدرزي أنه سيحسم الحرب لصالحه بمساعدة الأسد.

خطب جنبلاط في جامعة دمشق وقال عبارةً جانبه الصواب فيها عندما قال:

"جئنا سوريا لنستعير سيفها لنقطع به رأس الأفعى."

لم تلق عبارته صدى عند مخبري الأمن السوري المنتشرين بين طلاب الجامعة الذين حضروا خطبته، فرأس الأفعى التي قصد جنبلاط قطعها هو حزب الكتائب تحديدًا والموارنة بشكل عام، بينما كان حافظ يستقبل المبعوثَيْن الكتائبِيَّيْن كريم بقرادوني وميشيل سماحة لتأسيس علاقة متينة مع الموارنة تكون حصان طروادة العلويالذي سينفذ منه حافظ الأسد إلى لبنان.

سارع جنبلاط فور اندلاع الحرب لتكوين ماعُرِفَ بالحركة الوطنية اللبنانية التي تحالف فيها جنبلاط الاشتراكي مع ياسر عرفات الفلسطيني السُّنّيّ إضافةً لمناصري القضية الفلسطينية من سُنَّة لبنان وأخيرًا الحزب الشيوعي اللبناني،ومع حلول العام 1976م تَفَرَّغَ الأسد لضرب المتحاربين ببعضهم البعض من ناحية ومَدّ يد المساعدة لهم من ناحية أخرى.

عندما أقدم مقاتلو الكتائب على ارتكاب مجزرة الكرنتينا (المسلخ) وذبحوا سكانه الفلسطينيين السنة وهَجَّرُوا سكانه من المسلمين اللبنانيين كان سلاح الجريمة في أيديهم قد أمدهم به الأسد،وبعد أن نال الأسد مراده من الكتائب انتقل لصفوف الحركة الوطنية ليزيد اللهيب اشتعالًا.

تسللت مع بدايات الحرب عناصر من جيش التحرير الفلسطيني (منظمة فلسطينية تعمل تحت إمرة النظام السوري) إلى لبنان بغرض تفجير الأوضاع، وعندما رَدَّت منظمة التحرير على ماجرى في الكرنتينا بارتكاب مجزرة مروعة في الدامور انتهز حافظ الفرصة وأمر جيش التحرير بارتداء الزيالعسكري لمنظمة التحرير والتوجه إلى قرية السعديات المارونية المجاورة للدامور.

نفذ مقاتلو جيش التحرير أوامر الأسد بحذافيرها، فقتلوا من أبناء السعديات ما قتلوا وهَجَّرُوا مَنْ بَقِيَ حَيًّا ونهبوا قصر كميل شمعون ابن القرية، وباعوا وهَرَّبُوا من محتوياته ما استطاعوا إليه سبيلًا، وضرب حافظ في السعديات عصفورين بحجر واحد:

الأول: زيادة كراهية الموارنة للفلسطينيين ما سيجعلهم يجدون في سوريا درع الحماية لهم من جرائم ياسر عرفات ورفاقه، خاصةً مع انحياز الرئيس فرنجية لبني طائفته وثقته العمياء في حافظ الأسد.

الثاني: تفريغ دعوى جنبلاط للسلام في لبنان -واعتبار ماجرى في الكرنتينا آخر المجازر في لبنان- من مضمونها، وإظهار جنبلاط بمظهر المخادع؛ فكيف يدعو للسلام ثم يرد حلفاؤه الفلسطينيون بارتكاب مجزرتين في قريتين مارونيتين رَدًّا على مجزرة في مخيم مسلم؟!

كان ما فعله الأسد في السعديات نقضًا لعهده الذي تَعَهَّدَ به وزير خارجيته خدام لكمال جنبلاط؛ فقد طلب جنبلاط من خدام أن يعرض مبادرته للسلام على الرئيس فرنجية، فطلب منه خدام الانتظار حتى يقرر حافظ ما يجب عمله في لبنان، وكان ما حدث في السعديات هو رد الأسد الوقح على مبادرة جنبلاط.

زادت الهوة اتساعًا بين الرجلين فتدخل ياسر عرفات لجسرها،واتصل بعبد الحليم خادم في السادس والعشرين من مارس 1976م ليطلب منه موافقة الأسد على زيارة جنبلاط له في اليوم التالي، وبالفعل وافق حافظ على طلب عدوه اللدود،وفي اليوم التالي كان لقاء الرجلين الأخير.

سافر جنبلاط ومرافقه عباس خلف إلى دمشق حيث تباحث مع الأسد لسبع ساعات، وكان كل منهما يطرح على الآخر ما يراه مستحيلًا:

فقد طلب الأسد من جنبلاط مساعدته في ضبط الأمور في لبنان، وأعلمه أن المسيحيين موافقون على ذلك،ومن مصلحة البلدين التنسيق بما يحفظ مصالحهما.

لم يَرُقْ هذا الكلام لجنبلاط الذي رَدَّ على الأسد قائلًا:

"هؤلاء الموارنة إذا أردنا أن نعيش معهم فيجب أن نصفعهم كل فترة."

فَرَدَّ حافظ بخبث:

"كمال بك، أنت فرد من طائفة صغيرة، ومستحيل أن تحمل مشروعًا وطنيًا لبنانيًا شاملًا."

أفحم جنبلاط مضيفه بقوله:

"إذا كان المقياس هو الانتماء الطائفي، فطائفتك ليست ذات ثقل في سوريا."

فوجئ الأسد برد ضيفه الذي تابع كلامه بثقة يحسد عليها:

"الموارنة اللبنانيون يخدعونك، هم لا يحتاجون إلى تنسيق بل يريدونك أن تضرب الفلسطينيين وتهزمهم نيابةً عنهم بعدما عجزوا عن ذلك بواسطة الجيش اللبناني وتسببوا في انقسامه، وجعلوا مسلمي لبنان السُّنَّة يرون في منظمة التحرير جيشهم البديل."

حاول الأسد تدعيم وجهة نظره، فقال لجنبلاط:

"هل تعلم من كنت أحادثه على الهاتف قبل قدومك؟ إنه البطريرك الماروني بطرس خريش، كان يقول لي: الموارنة أمانة في رقبتك."

فَرَدَّ جنبلاط ببرود على ما سمعه قائلًا:

"لا داعي لطمأنتك، فالحركة الوطنية ستحسم الأمر عسكريًا مع الانعزاليين، وها أنا ذا هنا أطلب منك مساعدتنا بالسلاح لإنجاز مهمتنا."

هنا كَشَّرَ الأسد عن أنيابه قائلًا:

"لن أدعك تفعل ذلك."

فرد جنبلاط مستنكرًا:

"سيدي الرئيس، هل ستقف على الانعزاليين؟."

فَرَدَّ الأسد نافيًا:

"لا."

ثم طلب من عبد الحليم خدام أن يتلو عليه رسالة كميل شمعون زعيم حزب الوطنيين الأحرار.

طلب شمعون في رسالته إلى الأسد قيام اتحاد كونفدرالي بين سوريا ولبنان يترأسه الأسد، فَرَدَّ جنبلاط بسرعة البرق:

obeikandl.com

"سيادة الرئيس.. أنا لا أستطيع أن أسير في أية اتفاقية من هذا النوع،أنتم ليس لديكم حرية، وأنا لن أعيش في لبنان دون حرية، هذا هو شأن كل اللبنانيين، لن أدخل لبنان السجن العربي الكبير."

من تلك العبارة بدأت تنمو بذور كراهية الأسد لجنبلاط،ورغم بركان الغضب الذي انفجر داخله حافظ الأسد على هدوئه، وقال لجنبلاط بصيغة الاتهام:

"أنت تريد حكم لبنان من خلال ياسر عرفات."

استهزأ جنبلاط بكلام الأسد، ثم قام وقد استبد به الغضب والأسد يحاول تهدئته دون جدوى، وكانت تلك نهاية العلاقة بين حاكم سوريا وزعيم الدروز.

خلال عودتهما إلى لبنان،سأل عباس خلف جنبلاط في قلق:

"كمال بك،هل يقتلوننا قبل عبور الحدود؟."

فرد جنبلاط بثقة:

"إنهم أذكياء،لن يقتلوننا قبل عام وسيغتالونني وحدي."

بدأ الأسد يفرض سياسة الأمر الواقع في لبنان،فَقَدَّمَ بالتعاون مع سليمان فرنجية ميعاد الانتخابات الرئاسية لتُعْقَد في العاشر من أبريل 1976م بدلًا من أواخر سبتمبر من نفس العام، وفرض مرشحه الذي يحظى بتأييد الانعزال اللبناني بينما يرفضه المسلمون وهو حاكم مصرف لبنان المركزى إلياس سركيس، بينما هَمَّشَ المرشح الذي دعمه الفلسطينيون واليسار وهو ريمون إده،ثم انتقل للمرحلة الثانية من خطته للسيطرة اللبنانية.

بدأ حافظ يهيئ السوريين لتقبل مقتل أبنائهم في المحرقة اللبنانية،ففي خطاب ألقاه بتاريخ الثاني عشر من أبريل 1976م أعلن الأسد أن سوريا ضد هؤلاء الذين يصرون على مواصلة القتال، وأن هناك مؤامرةً تنسج خيوطها ضد الأمة العربية، وعلى الإخوة في القيادة الفلسطينية أن يفهموا خطورة هذه المؤامرة كونهم هدفها الرئيس.

كان كلام حافظ حقًا أراد به باطلًا؛ فالمؤامرة كانت تستهدف المقاومة الفلسطينية فعلًا من الولايات المتحدة وإسرائيل، لكن من سينفذها كان الأسد ولا أحد سواه ممن دعاهم أعداء الأمة.

بدأ حافظ يظهر عينه الحمراء لخصومه في لبنان،وكانت ضربة البداية في الخامس والعشرين من مايو 1976م، وذلك عندما أطلق مسلحون تابعون للمخابرات السورية النار على إده؛ فأصابوه في قدمه وأصيب كذلك ثلاثة من مرافقيه، بعدما اتهم نظام الأسد بالتواطؤ مع الولايات المتحدة

وإسرائيل للقضاء على المقاومة الفلسطينية وتصفية القضية الفلسطينية؛ تمهيدًا لفرض سلام بشروط إسرائيلية على دول المنطقة.ورغم تعرضه لمحاولة اغتيال فلم يتورع إده عن التحذير مجددًا من مخططات الأسد الخبيثة.

الثلاثون من مايو 1976م، عقد إده مؤتمرًا صحافيًّافي بيروت فَجَّرَفيه قنبلةً أكد بها اتهاماته السابقة لنظام الأسد إذ قال:

"سمعت من مصدر مقرب من هنري كيسنجروزير الخارجية الأمريكي إبَّان زيارتي الأخيرة لواشنطن أن السلام لن يتحقق في الشرق الأوسط مالم تتسلم سوريا الحكم في لبنان."

غادر إده لبنان بعدها إلى باريس حيث منفاه الاختياري بعدما وصلته أنباء عن اعتزام الأسد اغتياله.وقد أكدت الأحداث التالية صدق كلام إده بعدما صَرَّحَ جدعون رفائيل السفير الإسرائيليفي لندن"بحسب صحيفة النهار اللبنانية" أن الملك حُسَينًا اتصل به وأبلغه عرض حافظ الأسد على إسحاق رابين بالتنازل عن الجولان المحتل في مقابل دخول الجيش السوري إلى لبنان بذريعة وقف هجمات الفدائيين الفلسطينيين على شمال إسرائيل، وهو ما وافق عليه رابين بشرط.

اشترط رابين على الأسد في الحادي والثلاثين من مايو 1976م ألا يدخل صواريخ سام-6 أرض جو إلى جنوب لبنان؛ حتى يتسنى للطيران الإسرائيلي ضرب المقاومة الفلسطينية بأريحية كلما شنت عمليات فدائية ضد إسرائيل، ووافق الأسد على ذلك طالما أن لبنان سيصبح حجرًا على رقعة سياساته الشيطانية يحركه وفق مصالحه.

دخلت القوات السورية إلى لبنان في الأول من يونيو 1976م،وكان هذا الدخول خلطًا لأوراق جنبلاط وعرفات وسندًا قويًا لليمين المسيحي لفرض واقع جديد على الأرض.

فبعد التدخل السوري أصبح اليمين المسيحي مسيطرًا على ستة وستين في المائة من الأراضي اللبنانية بعدما كان يسيطر على ثمانية عشر في المائة قبل دخول الأسد على خط الأزمة،ووجد الأسد في تدخله العسكري بلبنان فرصةً لينفث بها عن حقده ضد كل رموز هذا البلد من البشر والحجر.

كانت القوات السورية لا تدخل موقعًا إلا غادرته ركامًا،ففي بيروت أُغْلِق مطار بيروت الدولي بعدما سقطت عليه قذائف دبابات الجيش السوري أثناء قتالها مع الحركة الوطنية وحلفائها من حركة المرابطين السُّنِّيَّة، كما قتل مسلحون ملثمون ليندا جنبلاط شقيقة الزعيم الدرزي كمال جنبلاط في هدية قاتلة أرسلها الأسد لخصمه العنيد، وتواصلت من بعدها هدايا الأسد القاتلة.

قصفت القوات السورية مصفاة الزهراني النفطية وخزاناتها في صيدا يوم التاسع من يوليو 1976م خلال معاركها مع جيش لبنان العربي الموالي للحركة الوطنية؛ فقطعت الكهرباء عن صيدا، وبعد أسبوعين قصفت القوات السورية مصفاة الدورة شمال بيروت فغرقت بيروت في ظلام دامس وشارفت فيها الحياة على التوقف بعدما فقدت السيارات ومحطات توليد الكهرباء القدرة على العمل، كان على اللبنانيين اقتلاع شوك الأسد بأنفسهم.

اضطر اللبنانيون نتيجة انقطاع الكهرباء الذي امتد أيامًا طويلةً لابتكار حلول تساعدهم على العيش وسط هذه الظروف المزرية، فكانوا يبسون الخبز بتعريضه للشمس، ثم يلين بالماء عند الحاجة إلى الاقتيات به مع بعض الأغذية المحفوظة.

ولم يكن ذلك كل شيء، أصدر الأسد أوامره لجنوده باقتحام مقرات الصحف اللبنانية:

فاقتحمت القوات السورية صحف النهار والسفير والحوادث الصادرة باللغة العربية، ودايلي ستار الصادرة باللغة الإنجليزية، ولوريان ولوجور الصادرتين باللغة الفرنسية، واحتجزت صحفيها وأهانتهم وضُرِبوا بأعقاب البنادق قبل أن يفرج عنهم بعد عدة أيام وقد وصلتهم الرسالة القاسية:

لا صوت يعلو فوق صوت الأسد.

كانت هذه الواقعة الرسالة الأولى من حافظ لإعلاميي وصحفيي لبنان أن ما سيكتب بعد اليوم لن يكون من قرائح فكرهم المستنيرلكن من ضباط المخابرات وجواسيس الأمن وزوار الفجر،وحتى يؤكد الأسد على جدية رسالته نسف أمنه جريدة المحرر، وطارد سليم اللوزي مؤسس جريدة الحوادث ورئيس تحريرها حتى أجبره على الفرار من لبنان إلى لندن.

في مقابل إجرام الأسد تحرك جنبلاط محاولًا دفع العالم إلى إجبار الأسد على الرحيل، لكنه لم يجد من العرب قبل العجم سوى التجاهل والمجاملات التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

بدأ جنبلاط جولته بالسفر لبغداد حيث التقى طه ياسين رمضان طالبًا منه العون لإخراج الجيش السوري،لكن رد رمضان كان فاترًا وطلب من جنبلاط استخدام قنابل المولوتوف لإخراج الجيش السوري من لبنان، ويالها من نصيحة سخيفة!

بهت كمال جنبلاط الذي فوجئ بالرد العراقي على طلبه بالرغم من العداء المستحكم بين بغداد ودمشق الذي اعتقد أنه سيرجح كفته عندما يطلب مساعدة العراق لقتال الأسد،فقال لرمضان بلهجة يائسة بعدما تيقن من الخذلان:

"يا عمي أنا مش شغلتي تدمير الدبابات السورية،أنا بدي أحمي الشعب اللبناني."

وعندما وصل جنبلاط إلى العاصمة السعودية الرياض لم يجد من مضيفيه السعوديين رغبةً في مقارعة الأسد،وحتى يحفظ ماء وجهه عرض على ولي العهد السعودي الملك عبد الله بن عبد العزيز الصيغة التالية:

"ما حك جلدك مثل ظفرك،فليدعنا السوريون وشأننا."

خلال خطاب ألقاه الأسد في جامعة دمشق بتاريخ السابع والعشرين من يوليو 1976م مارس الأسد الدجل السياسي على الحاضرين من الطلبة، فأعلن أنه ما دخل لبنان إلا بطلب من اللبنانيين أنفسهم ليحقق ثلاثة مطالب عجز أصحاب الشأن عن تحقيقها، وهي:

-1منع التقسيم.

-2وقف القتال.

-3المحافظة على المقاومة الفلسطينية.

وبافتراض حسن النية فيما فعله الأسد،أين هذه الأهداف التي تحققت؟

لقد رَسَّخ التدخل السوري تقسيم الأراضي اللبنانية، فبقيت بيروت شطرين غربي مسلم وشرقي مسيحي يذبح الموارنة مسلميه بسكين جيش الأسد.

أما وَقْف القتال فقد كان ذلك كذبًا ممجوجًا من حافظ؛ فالقتال ازدادت ضراوته بعد تدخل الأسد، وارتفع عدد ضحايا الحرب الأهلية في لبنان من ألفي قتيل في نهاية مايو 1976م إلى خمسين ألفًا بحلول نهاية يوليو من نفس العام.

أما المحافظة على المقاومة الفلسطينية فهيالمزحة السخيفة والكاذبة بامتياز من طاغية دمشق،فالقاصي والداني يعلم كيف طعن الأسد المقاومة الفلسطينية في ظهرها عندما استغاثت به خلال أحداث أيلول الأسود في الأردن عام 1970م عندما كان وزيرًا للدفاع، ثم تواطأ مع النظام الأردنيفي العام التالي ليجبر المقاومة الفلسطينية على الرحيل من الأردن، هذا علاوةً على البغض الشديد الذي كان يكنه الأسد لياسر عرفات.

غير أن السيطرة على لبنان لم تدن للأسد بعد؛ فقد وقف الرائد أحمد الخطيب مؤسس وقائد جيش لبنان العربي عقبةًفي وجه الأسد خاصةًفي صيدا، وأرغم القوات السورية على الانسحاب من محيطها المحاصر بعدما فشلتفي اقتحامها والسيطرة عليها.

خاض الخطيب معارك ضاريةً ضد الجيش اللبناني الموالي لسوريا وقوى الانعزال المارونية، اضطر الأسد لمجاراة الخطيب حتى تسنح له الفرصة للتخلص منه.

استطاعت مخابرات الأسد إلقاء القبض على الخطيب ونقلته إلى دمشق، وهناك التقاه حافظ في مقر المخابرات، وعلى غير المتوقع أثنى على شجاعة الخطيب، بل ذهب أبعد من ذلك بأن يجعله رئيس لبنان القادم شريطة أن يأتمر بأمر الأسد، ولما رفض أُلْقِيَفي السجن.

استمرت جولات جنبلاط للحصول على حلفاء يتبنون قضيته العادلة، فوصل إلى مصر حيث التقى برئيسها أنور السادات ونائبه حسني مبارك، حيث تَلَقَّى وعودًا بالدعم المصري ضد السوريين؛ لأن المؤامرة على الشعب اللبناني والثورة الفلسطينية كبيرةً كما زعم السادات.

توجه جنبلاط بعدها إلى الجزائر بطائرة مصرية وضعها السادات تحت تصرفه، ممنيًا نفسه بموقف مختلف عما وجده في القاهرة، أي الحصول على دعم سياسي وعسكري قوي يقارع به الأسد، لكن في كل واد بنو سعد؛ فقد حذا الجزائريون حذو الرياض وبغداد والقاهرة، واكتفوا بالقول وامتنعوا عن الفعل.

من الجزائر استقل جنبلاط طائرةً أخرى إلى ليبيا معتقدًا أن الخلاف بين معمر القذافي وحافظ الأسد حول دعم الأطراف المتحاربة سيترجم دعمًا لا حدود له،لَكِنَّ القذافي اكتفي بمعسول الكلام.

غادر جنبلاط طرابلس مهمومًا مغمومًا يشعر بتخلي الجميع عنه وتأييدهم الضمني لأفعال حافظ الأسد في لبنان؛ فقرر التوجه إلى حليفه الذي ظنه مخلصًا:

الاتحاد السوفيتي.

طلب جنبلاط من رفيقه في الحركة الوطنية وعضو الحزب الشيوعياللبناني نديم عبد الصمد السفر إلى موسكو وترتيب لقاء له مع القيادة السوفيتية،وبالفعل تَوَجَّه عبد الصمد لعاصمة المارد الشيوعي وهناك تَلَقَّى الجواب المهين.

لم يكلف الرئيس السوفيتي ليونيد بريجنيف نفسه عناء مقابلة عبد الصمد بالرغم من منحه جنبلاط وسام لينين،فأرسل له موفدًا عن الحزب الحاكم يدعى الرفيق بروتنس أبلغه ردًا مقتضبًا بشأن زيارة زعيم الحزب التقدمي:

قل للرفيق جنبلاط إننا نعرف آراء بعضنا ولا داعي للزيارة.

عاد جنبلاط من جولته العربية بخُفَّيِ حُنَيْن،ولدى عودته إلى مقر إقامته في الشوف سمع المديح الأمريكي للوجود السوريفي لبنان، من قبيل أن الولايات المتحدة ترى في الوجود السوري على الأراضى اللبنانية عامل استقرار، وأن واشنطن تتفهم المصالح السورية في لبنان، يومها صرخ جنبلاط:

"إنها مؤامرة دولية على لبنان."

رغم الخذلان الذي وجده في زياراته لم يفقد جنبلاط الأمل في التصدي لأطماع الأسد في بلاد الأَرْز؛ فزار جنبلاط باريس ملتقيًا رفيق دربه ريمون إده، وعرض عليه إقامة حكومة لبنانية في المنفى على غرار ما فعله شارل ديجول إبان الحرب العالمية الثانية، فرد عليه إده:

"هَوِّن عليك كمال بك،لن يعترف أحد بهذه الحكومة؛ فقد تواطأ الغرب والشرق على لبنان وسلموه للأسد، ولن يُقْدِموا على شيء يثير غضب الأسد."

عِوَضًا عن ذلك طلب إده من جنبلاط القدوم للعيش معه في باريس أو التنقل بين القاهرة والرياض أيهما يختار المهم أن يغادر لبنان؛ لأن حافظ الأسد قرر تصفيته حسبما وصل لعلم إده.

رفض جنبلاط مقترح إده؛ فقد تحكم فيه هاجس الوفاة عند سن الستين كما أبوه، وسيبلغ جنبلاط ذلك السن في العام القادم 1977م، فلا فكاك إذن حسبما اعتقد جنبلاط من القدر المحتوم.

على الأرض كان الأسد يثبت أنه صاحب اليد العليا يومًا بعد آخر، فقد نجحت القوات السورية من التقدم إلى صيدا عقب سجن أحمد الخطيب، وسيطرت على مصفاة الزهراني النفطية فيها ثم أتبعها بالاستيلاء على مصفاة النفط في طرابلس؛ ليرسل بذلك الأسد رسالةً للبنانيين والعرب ألّا حل في لبنان بدونه.

أدت رسالة الأسد هدفها؛ فتوجهت عدة وفود من بيروت إلى دمشق من الحكومة وممثلي الجبهة اللبنانية، وممثلين عن منظمة التحرير، وتوجهت كذلك الزعامات الروحية كمفتي السنة الشيخ حسن خالد وموسى الصدر رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى ومحمد أبو شقرا شيخ عقل الدروز، وكانت نتائجها إيجابيةً بين الأسد والأطراف اللبنانية المعنية.

تلا هذه الزيارات اجتماعات عسكرية بين القيادة السورية والحكومة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية حضرها ممثل الجامعة العربية في لبنان حسن الخولي، وأبدى إلياس سركيس مرونةً مع منظمة التحرير.

تمكن المؤتمرون لاحقًا من الوصول إلى وقف لإطلاق النار بين منظمة التحرير وحلفائها وحلفاء سوريا الموارنة، لكن لم يُكْتَب له الاستمرار؛ فتدخلت الدول العربية رفعًا للعتب.

أرسلت السعودية والكويت مبعوثين لهما لإيجاد صيغة تُوقِف الحرب، ودعا الرئيس المصري أنور السادات لعقد قمة عربية، وتمخضت الجهود الدبلوماسية العربية عن صدور دعوة عن الديوان الملكي السعودي في الخامس عشر من أكتوبر 1976م تدعو لعقد قمة عربية سداسية في الرياض مساء اليوم التالي يشارك فيها رؤساء سوريا ولبنان ومصر وملك السعودية وأمير الكويت ورئيس منظمة التحرير؛ لبحث الوضع في لبنان.

صباح اليوم التالي، توجه إلياس سركيس إلى دمشق للقاء حافظ الأسد ومعه عدد من قيادات الجيش والأمن للتحضير لقمة الرياض، وسافر سركيس ومجموعته على متن طائرة الأسد، وبعد وصولهما إلى الرياض علم الأسد وسركيس بخبر تأجيل القمة إلى صباح السابع عشر من أكتوبر، واستعيض عن ذلك بعقد جلستين بين الأسد وكل من السادات وياسر عرفات لإصلاح ذات البين.

صباح يوم المؤتمر، كُلِّفَ سركيس بالعمل على إعداد ورقة عمل مع ياسر عرفات، وخرجت قمة الرياض بمقررين هامين عند ختامها في الثامن عشر من أكتوبر:

الأول:الاعتراف بأهمية الدور السوريفي استقرارلبنان.

الثاني:تشكيل قوات حفظ سلام عربية من السعودية والسودان واليمن الجنوبي والإمارات، مع وجود انقسام حول مشاركة القوات السورية خاصةً من منظمة التحرير،لذا اقترح السادات عقد اجتماع قمة عام هذه المرة في القاهرة بعد أسبوع لنَيْل الإجماع العربي على مقررات قمة الرياض.

عقب عودته لبيروت،طلب سركيس من رئيس وزرائه المكلف سليم الحص مرافقته في قمة القاهرة، فوافق الحص وعقد سركيس آمالًا عريضة على قمة القاهرة لإحلال السلام في لبنان، خاصةً مع تجدد القتال الضاريفي بيروت.

غادرسركيس و الحص بيروت إلى دمشق للقاء الأسد والمغادرة معه إلى القاهرة كما المرة الماضية، ولحق بهما رشيد كرامي قبيل المغادرة،وغادر الأربعة دمشق إلى القاهرة في الرابع والعشرين من أكتوبر.

في قمة القاهرة،عرض سركيس مخاوف الجبهة اللبنانية والفلسطينيين بشأن قوات الردع العربية أمام المجتمعين: فالجبهة لا تريد تواجد قوات عربية في مناطقها، والفلسطينيون لا يريدون تَحَكُّمًا سوريًّافي قوات الردع بما يحولها لقوات وصاية تعمل لمصلحة الأسد، وشَاطَرَ مبعوث العراق الجانبين مخاوفهما.

بدهائه المعهود، أعلن الأسد استعداده التخلي عن المشاركة في قوات الردع العربية إذا ما أكملت الدول العربية العدد المطلوب لقوات الردع، وهو ما حاول عرفات فعله بدعوة السادات للمساهمة بقوات مصرية، فرفض الأخير طلبه بذريعة عدم حسم المفاوضات مع إسرائيل،ومع تَأَزُّم الأمور تُرِك موضوع قوات الردع للنقاش بين لبنان والدول المعنية.

انتصر الأسد بخصوص مشاركته في قوات الردع،وأصبحت القوات السورية تمثل غالبية القوات العربية بالرغم من هواجس الفلسطينيين والموارنة، وعندما طلب رشيد كرامي منح تطمين للجانبين يتمثل في منح الرئيس سركيس قيادة هذه القوات بدلًا من تعيين قائد حسب القواعد المتبعة، كان رد الأسد قاطعًا:

"الحكومات تتغير وتتبدل،ولن أضع جيشي تحت إمرة من لا أعرفه."

لكنه استعاض عن ذلك بترك تعيين قيادة القوات المشتركة للرئيس اللبناني،وفي الرابع من نوفمبر 1976م أعلن سركيس تعيين العقيد أحمد الحاج قائدًا لقوات الردع العربية.

في التاسع من الشهر نفسه بدأت طلائع قوات الردع في الوفود إلى لبنان، وفي الرابع عشر من نوفمبر دخلت قوات الردع العربية بيروت وجبال الشوف،حدث كل هذا دون دعوة كمال جنبلاط.

شعر جنبلاط بالإهانة بعدما اسْتُثْنِيَ من الدعوة لحل أزمة بلاده رغم كونه طرفًا رئيسًا فيها، ودعا جنبلاط أحرار العالم إلى مساندته في جهوده لإخراج ما دعاه (الاحتلال السوري من لبنان)،لكن نداءات جنبلاط ذهبت أدراج الرياح بعدما سَلَّمَ أهل مكة شعاب لبنان للأسد ليعيث فيها فسادًا، ولا عزاء لجنبلاط!

الثامن من ديسمبر1976م،بدأ سليم الحص مشاوراته لتشكيل الحكومة الجديدة، وفي السادس عشر من الشهر نفسه أعلن الحص انتهاءه من تشكيل الحكومة الجديدة، وبدأ يتضح للحص جَلِيًّا أنه لن يُسَيِّر شأنًا من شئون لبنان مالم يأذن له حاكم دمشق،وكانت أولى هذه الدلائل أزمة الصحف اللبنانية.

فلم يكتف الأسد بما ارتكبه من جُرْم في حق الصحافة اللبنانية خلال أيامه الأولى،فاستمر الأمن والمخابرات السوريان في دهم الصحف اللبنانية والاعتداء على رؤساء تحريرها، وتجدد ذلك الأمر في السادس عشر من ديسمبر1976م عندما داهمت عناصر مدنية مسلحة مكاتب صحف:

المحرر والدستور وبيروت وعاثت فيها فسادًا؛ بسبب تأييدها لنظام بغداد المناوئ للأسد،وأبلغ رياض طه نقيب الصحفيين اللبنانيين رئيس الوزراء استياءه مما حدث طالبًا منه تصحيح الوضع.

اضطر الحص للسفر إلى دمشق ليطلب من الأسد وقف هذه المداهمات التي تشوه حرية الرأي والصحافة اللتين اتسم بهما لبنان منذ استقلاله، وقد وعده الأسد بإجابة مطالبه وبحث آخر المستجدات مع قوات الردع العربية،لكن ذلك لم يكن سوى فخٍّ جديد من أفخاخ الأسد.

توقفت عمليات الدهم لفترة وجيزة عادت بعدها ربما لعادتها القديمة،فدهمت صحف النهار واللواء واللوجور، وبقيت فقط صحيفة العمل الناطقة باسم حزب الكتائب الموالي للأسد،وقرر الأسد توجيه رسالة بمهمة جديدة لحكومة الحص عقب جلسة نيله الثقة بالبرلمان اللبناني في الثامن والعشرين من ديسمبر 1976م.

فقد صَرَّحَ أمين عام حزب البعث بلبنان عاصم قانصوه بتصريح في التاسع والعشرين من ديسمبر قال فيه:

"يجب على الحكومة فرض رأيها وأن تكون عاملًا توجيهيًا لما تبقى من الصحافة اللبنانية؛ لأنها بذلك سَتُكَرِّس الاستقرار والأمن."

أي بعبارة أخرى،أناط الأسد بحكومة الحص مهمة قمع الرأي المعارض خلف ستار القانون؛ ليصبح لبنان النسخة الثانية من سوريا الأسد،ولم يتأخر سركيس عن تلبية أوامر الأسد.

أصدر سركيس مرسومه التشريعي الأول الذي فَرَضَ رقابةً قاسيةً على الصحافة والإعلام اللبنانيين، وخلال عرض ذلك المرسوم على الحص في جلسة مجلس الوزراء بتاريخ الأول من يناير 1977م.

رد عليه سركيس والحزن يقطر من كلامه:

"لا مناص من هذا المشروع."

أصيب رئيس الوزراء بخيبة الأمل من قسوة قبضة الدولة على الرأي الحر، لم تعد الصحف المُدَاهَمَة للعمل إلا عقب صدور هذا التشريع القمعي، شعر سركيس بما يختلج في صدر الحص فقال له على انفراد والألم يسيطر عليه:

"صدقني، أيدينا ستكبل ولن تكون لجنة عربية رباعية إلى جانبنا، ولن تكون قوات ردع تحت تصرفنا، ولن تقدم معونات إعادة الإعمار لنا ما لم يطبق هذا القانون."

فهم الحص أنها أوامر الأسد، أوصل هذه الرسالة لوزرائه الذين خافوا من انتقام رأس النظام العلوي منهم إذا صَوَّتُوا ضد هذا القانون؛ فصوتوا بالإجماع لصالح القرار، لكن بقي الجدل حول الجهة المناط بها تطبيق هذا القانون.

كانت الإجابة المنطقية لهذا السؤال هي وزارة الإعلام لتصنيف الصحافة وسيلة إعلام مقروءة،ولأن الحص قد فهم من وراء هذا القانون من البداية، فقد علم أيضًا أية جهة عليها تطبيقه.

حسم الحص الجدل بين وزرائه وأوكل المهمة لوزارة الأمن العام،حاول الحص بعدها التودد لكمال جنبلاط، وجاءته عبر صديق مشترك هو أمين علامة وكان مديرًا لأحد المصارف في بيروت.

التقى الحص علامة في الرابع من يناير،وقد سأله علامة عن الجفاء بينه وبين زعيم الحركة الوطنية، فنفى الحص وجود خلاف بينه وبين جنبلاط مرحبًا بلقائه في أي مكان وزمان يقترحهما،فدعاهما علامة لتلبية دعوة سليم خير الدين رجل الأعمال على الغداء في اليوم التالي فوافق الحص.

التقى الحص وجنبلاط في منزل خير الدين، وبعد المصافحة انتحيا جانبًا وتناقشا حول تطورات الوضع في لبنان، حيث أبدى جنبلاط قلقه من قانون الصحافة الأخير، معتبرًا أن ذلك يُقَوِّض دعامةً هامةً قام عليها لبنان وهي حرية الرأي.

طمأن الحص جنبلاط أن ذلك أمر مؤقت حتى تستقر الأوضاع في لبنان،ورغم الارتياح الذي أبداه جنبلاط في حضرة الحص إلا أنه تأكد في قرارة نفسه أن الأسد قد أحكم شباكه حول الفريسة اللبنانية.

وصلت أنباء للحص عن رفض الصحفيين قانون الصحافة الذي أُقِرَّبداية الشهر، وأن ذلك أمر غير معهود في لبنان بلد الحرية،وكان عليه أن يجد مبررًا مقنعًا ليخرج به إلى الصحفيين الساخطين.

السادس من يناير 1977م،صَرَّحَ الحص بأن الحكومة حريصة على صيانة الحريات الدستورية التي نشأ عليها لبنان، معللًا تشريع مجلس الوزراء الأخير أنه جاء نتيجة انفلات زمام الأمور وخروجها عن السيطرة.

اتهم الحص الصحافة اللبنانية بأنها كانت بوقًا من أبواق الفتنة التي سبقت اندلاع الحرب،لكن ذلك لم يوقف الجدل حول القانون القمعي رغم فرض الحكومة تطبيقه بالقوة.

اسْتُدْعِيَ الحص للتحقيق أمام لجان نيابية في مجلس النواب حول هذا القانون بعدما احتج النواب على أسلوب ممارسة الرقابة؛ فقد كان الخبر يُحْذَف من جريدة ويُبْقَى عليه في أخرى.

دفع ذلك الأمر العديد من الصحفيين لاتهام الحص بالمحاباة، ولم يجد الحص ما يرد به غير قوله إن الحكومة لا تجيد الرقابة وإلا لشيعت حرية الرأيفي لبنان إلى مثواها الأخير.

بعدما قمع الأسد حرية الرأيفي لبنان،أراد حافظ الأسد من جديد الحصول على مباركة وتملق زعماء الجهة اللبنانية الذين سَلَّمُوه لبنان

على طبق من ذهب، فزار سليمان فرنجية وبيير الجميل وكميل شمعون دمشق في الثامن عشر من يناير 1977م.

صرح بيير الجميل عقب عودته إلى بيروت أن الجبهة اللبنانية تحب وتحترم حافظًا الأسد وتثق في قدرته على ضبط الأوضاع في لبنان،وأعطى ذلك التصريح جرعة ثقة للأسد في مجابهته مع جنبلاط والتي أوشكت على نهايتها.

بدأ الأمن السوري يُضَيِّق الخناق على تحركات جنبلاط متذرعًا بضرورة تواجد حراسه من الأمن اللبناني إلى جواره في سيارته لا في سيارة أخرى تتبعه كما هو الحال،استنكر جنبلاط ذلك الأمر قائلًا:

"أين سيجلس ستة عشر شخصًا في سيارة مرسيدس لا تتسع سوى لأربعة أشخاص؟."!

وعندما ضاق جنبلاط ذرعًا بذرائع الأمن السوري الواهية اكتفى بحارسين فقط هما حافظ الغصيني وفوزي شديد،في تلك الأثناء تواردت أنباء لتوفيق سلطان رفيق جنبلاط في الحزب التقدميالاشتراكي الموجود في القاهرة وقتها حول نية حافظ الأسد تصفية جنبلاط للخلاص من صداع معارضته المزعج للأسد.

دَبَّ الذعر في نفس سلطان الذي نقل مخاوفه لوزير الخارجية المصري وقتها إسماعيل فهمي، فَرَدَّ عليه فهميفي هدوء:

نحن لدينا معلومات مؤكدة في هذا الشأن.

فَرَدَّ سلطان متسائلًا:
وما العمل؟

رَدَّ فهمى:
فليتفضل بالحضور إلى مصر، فقد أعددنا له قصرًا فخمًا في مصر الجديدة يليق بمقامه، أو فليذهب إلى الهند أحد مكانين مفضلين إلى قلبه إلى جوار عاصمة النور باريس.

تَيَقَّنَ سلطان وقتها أن لحظة النهاية حانت، وهو ماكان يعد له حافظ الأسد بالفعل في ذلك الوقت، وأصدر أوامره لشقيقه رفعت رئيس المخابرات حينها بالمُضِيّ قُدُمًا في خطوات اغتيال جنبلاط، وكان رفعت عند حسن ظن شقيقه به.

أمر رفعت الأسد إبراهيم حويجي الرائد بالأمن السوري العامل في لبنان بمصادرة سيارة بونتياك أمريكية من ميناء بيروت لاستخدامها في مهمة سَتُوكَل إليه لاحقًا، نَفَّذَ حويجي أمر رئيس المخابرات منتظرًا ما يستجد من أوامر، وكانت هذه الحادثة هي بداية العد التنازلي لاغتيال كمال جنبلاط.

obeikandl.com

أراد الأسد إبعاد شبهة اغتيال جنبلاط عنه،فدعا الزعيم الدرزي لزيارة دمشق، وقد أعلن جنبلاط ذلك الأمر في وجود ياسر عرفات وعدد من القيادات اللبنانية في الحادي عشر من مارس 1977م،لكن ما وقع من أحداث لاحقة أظهر بجلاء نوايا الأسد ضد جنبلاط.

صباح السادس عشر من مارس 1977م،التقى جنبلاط في مقر حزبه ببيروت السفير الهندي وسفير الجزائر، حيث ألح عليه الرجلان أن يغادر لبنان إلى بلديهما؛ فتأكد جنبلاط وقتها أن مقتله قاب قوسين أو أدنى، فَرَدَّفي اقتضاب:
أريد أن أعود إلى بلدي إلى قريتي،أنا أعرف مصيري.

خلال عودته لبلدته المختارة في جبال الشوف وعند دوار بعقلين، وعلى مقربة من أحد حواجز القوات السورية،اعترضت سيارة بونتياك أمريكية رقمها 5888 بغداد طريق سيارة جنبلاط ورفيقيه حافظ الغصيني وفوزي شديد.

خرج من السيارة أربعة مسلحين ملثمين، اثنان منهم بملابس مدنية واثنان منهم بملابس عسكرية،أطلقوا عليهم النار فأردوهم قتلى،انتهت حياة كمال جنبلاط لكن لم تنته ملابسات الجريمة بعد.

تصادف مرور سيارة يقودها رجل يُدْعَى سليم حداد وبصحبته صديق يُدْعَى جميل عازر، أوقفه مرتكبو الجريمة قسرًا، وأنزلوا صديقه عازر من السيارة، وأمروه بالانبطاح على الأرض، ثم أمروا (حدادًا) أن يهرب بهم، وقالوا له بلهجة سورية ميزها حداد:

"ستموت إذا فتحت فمك بكلمة واحدة مما رأيت."

هكذا كتب حافظ الأسد نهاية كمال جنبلاط لينذر غيره ممن سَوَّلَت لهم أنفسهم معارضة قبضته الحديدية على لبنان أن مصيرًا مشابهًا ينتظرهم،وانتقل إلى الخطوة التالية في قطع دابر معارضيه.

أواخر يونيو 1977م،طلب وزير الدفاع والخارجية فؤاد بطرس في جلسة مع الحص والرئيس سركيس إقالة الضباط السُّنَّة الذين انضموا لجيش لبنان العربي، ووافق الحص على ذلك الأمر من مبدأ محاسبة الخارجين على سلطة الدولة.

لكن الحص طلب في المقابل إقالة الضباط الموارنة الذين حاربوا في الجبهة اللبنانية إلى جانب الكتائب إقرارًا لمبدأ العدالة،فَصُعِقَ من الرد الذي تلقاه.

رفض وزير الجمهورية ووزير دفاعه طلب الحص؛ بذريعة مقاتلة الموارنة دفاعًا عن الشرعية، معللين ذلك باصطفاف الرئيس السابق فرنجية إلى جانبهم،لكن الحص رفض في غضب ذلك المنطق قائلًا:

"إن كل من انشق عن خارج النظام خرج على السلطة الشرعية، لا فرق في ذلك بين ماروني وسُنّيّ ودرزي أو غيرهم من طوائف لبنان."

إزاء تصميم الحص على تحقيق مبدأ المساواة، وبعدما تلقى بطرس وسركيس الضوء الأخضر من الأسد بعدم تفجير أزمة بين المسلمين والمسيحيين يتطاير شررها إلى دمشق،أحجم بطرس عن قرار إقالة الضباط من الجانبين، وحل محله قرار بقبول الاستقالات الطوعية من الجانبين.

دخلت العلاقات بين الأسد وعناصر الجبهة اللبنانية مرحلة التوتر مع حلول أواخر 1977م وبدايات العام 1978م؛ نتيجة توثيق الجبهة اللبنانية لعلاقاتها مع إسرئيل على حساب علاقتها مع سوريا،وفي السابع من فبراير 1978م وقع التطور الأسوأ في العلاقة بين الجانبين.

هاجم عشرون عنصرًا من الجيش اللبناني منضوين تحت لواء الجبهة اللبنانية حاجزًا للجيش السوري بثكنة الفياضية في بيروت واحتجزوا

جنديين سوريين،ثم تطور الأمر إلى احتجاز المواطنين السوريين في حافلات بيروت.

بلغ السيل الزبى بإطلاق تلك العناصر النار على حافلة تقل جنودًا سوريين كانوا في طريقهم لقضاء إجازتهم في دمشق،ولم يمر الأمر مرور الكرام عند حافظ الأسد الذي شعر أن هيبته قد أهينت.

أرسل الأسد رئيس أركانه حكمت الشهابي وقائد المخابرات السورية في لبنان اللواء ناجي جميل للوقوف على ما جرى،كما أجرى الرئيس سركيس اتصالًا بنظيره السوري ليُعْلِمَه أن الحكومة اللبنانية ستتخذ الإجراءات اللازمة ضد مرتكبي هذا الحادث الإجرامي لكن ذلك لم يُطْفِئ نار غضب الأسد.

صباح اليوم التالي،التقى الرئيس الأسبق سليمان فرنجية بسركيس في وجود سليم الحص، واقترح عليه سركيس ترؤس وفد لبناني لزيارة دمشق يضم إلى جانبه فؤاد بطرس والمقدم ساميالخطيب قائد قوات الردع العربية.

كان لترؤس فرنجية الوفد دلالة رمزية على الطمع اللبنانيفي صفح الأسد،خاصةً أن المتهم بقيادة الاعتداء على القوات السورية ضابط موال لفرنجية هو العقيد أنطوان بركات.

توجه الوفد اللبناني إلى سوريا والتقى الرئيس السوريالذي كان في ذروة غضبه، وأصر على إنشاء محكمةً عسكريةً استثنائيةً لمعاقبة الجناة في حادثة الفياضية،وبعد إلحاح ومشقة في التفاوض من الوفد السوري وافق الأسد على العدول عن إنشاء المحكمة على شرط:

أن يصدر قادة الجبهة اللبنانية والقيادة اللبنانية تصريحًا يعلنان فيه تأييدهما الكامل للسياسة السورية في لبنان،وهو ما حدث ليقبض الأسد ثمنًا سياسيًا يمنح تسلطه مزيدًا من الشرعية في لبنان.

ازدادت علاقة فرنجية بالأسد متانةً عقب هذه الحادثة،وانسحب بعدها فرنجية من الجبهة اللبنانية، وفي محاولة رعناء لإعادته إلى الجبهة بالقوة منح قادة الجبهة فرصةً ذهبيةً لحافظ الأسد لينتقم منهم شر انتقام.

أوكل بشير الجميل لسمير جعجع قائد القوات اللبنانية (ذراع الكتائب المسلح) مهمة خطف توني فرنجية نجل الرئيس من منزله في إهدن بزغرتا شمال لبنان؛ لإجبار أبيه على العودة للجبهة اللبنانية في مقابل الإفراج عنه.

لما ووجه جعجع بمقاومة شرسة من توني وأعوانه ارتكب مجزرةً بشعةً مساء الثالث عشر من يونيو 1978م راح ضحيتها توني وزوجته وابنته

الرضيعة فيرا، ونجا منها صبيه سليمان الذي لم يكن موجودًا مع عائلته،وأصبح لبنان على شفا تدهور جديد.

بعد تشييع جنازة الابن في اليوم التالي،جاء رد حافظ الدامي بقتل عشرات من أتباع القوات اللبنانية في زغرتا، وفي الثامن والعشرين من يونيو 1978م رد أنصار فرنجية بارتكاب مجزرة مروعة في بلدة القاع راح ضحيتها ثلاثون شخصًا في رسالة بعثها الأسد مؤداها أنه صاحب الأمر والنهيفي بلاد الأَرْز.

خلال الثلاثة أشهر التالية لتلك المجزرة زاد الطين بلةً الاشتباكات المتتالية بين الجبهة اللبنانية وقوات الأسد؛ فاضطرت الأمم المتحدة إلى التدخل بين الجانبين عبر مبعوثها جيمس جونا.

بضغوط دولية سافر إلياس سركيس إلى دمشق للقاء حافظ الأسد في السادس من أكتوبر 1978م، وحصل على موافقته لإبرام وقف إطلاق النار،ثم أشار الأسد على ضيفه القيام بجولة عربية تنتهي بعقد اجتماع قمة عربي خلال الأسبوع القادم تناقش فيه الدول المعنية تطورات الوضع اللبناني.

انتهى سركيس من جولته العربية في الثالث عشر من أكتوبر 1978م، والتي زار خلالها الإمارات وقطر والكويت والأردن ثم عَرج على دمشق ليعرض

عليه نتائج زيارته،وفي الخامس عشر من أكتوبر 1978م التأم المجتمعون في بيت الدين بجبل لبنان.

استطاع الأسد فرض أجندته على المجتمعين، فبقيت شرعية قوات الردع العربية التي تشكل سوريا سوادها الأعظم نَصًّا مُقَدَّسًا،كما أُجْبِر المجتمعون على تأجيل بناء الجيش اللبناني للقيام بمهام قوات الردع للنقاش بين النظام السوري والحكومة اللبنانية.

احتاجت الحكومة اللبنانية مجددًا لخدمات جيش الأسد عندما أوقفت قذائف الكتائب ومعاركه مظاهر الحياة في العاصمة اللبنانية.فزار سليم الحص دمشق والتقى الأسد وعرض عليه تدخل القوات السورية لإيقاف الكتائبيين عند حدهم، بعدما شعروا أن ميزان القوة يميل إلى صالحهم في مواجهة الدولة.

أبدى الأسد موافقته، لكنه اشترط موافقة الفلسطينيين وحلفائهم في الحركة الوطنية؛ حيث إن خطته تعتمد على تطويق شطر العاصمة الشرقي عبر منطقتي الليطاني والزهراني المُسَيْطَر عليهما من الفلسطينيين والحركة الوطنية.

اشترط الأسد كذلك أمرين وجب على الحص إبلاغهما للرئيس سركيس إذا ما أراد تعاون الأسد لسد الثغرات الأمنية التي تعاني منها الدولة لتفرض سيطرتها:

-1طرد قائد جيش لبنان الجنوبي العميل لإسرائيل الرائد سعد حداد.

-2إقرار قانون جديد لتشكيل الجيش يراعي الطوائف اللبنانية بدلًا من بنيته الحالية التي تطغى عليها الصبغة المارونية.

كان ذلك إثباتًا جديدًا من الأسد أنه حاكم لبنان الفعلي لا سركيس ولا الحص، فبأي صفة يفرض رئيس دولة على رئيس دولة مجاورة مستقلة ذات سيادة أن يفعل كذا ولا يفعل كذا إلا إذا كان يعتبره موظفًا بدرجة رئيس؟!

عقد الأسد العزم على تصفية معارضيه في لبنان، فَدَبَّر محاولة لاغتيال بشير الجميل في الرابع من فبراير 1980م راحت ضحيتها ابنته مايا، وفي الرابع من مارس 1980م عُثِرَ على جثة الصحفي السُّنّيّ سليم اللوزي مؤسس ورئيس تحرير صحيفة الحوادث في أحراش عرمون ببيروت.

كان منظر الجثة يبعث على الرعب؛ فقد أُذِيبَ كف اللوزي الأيمن بالحمض بعدما كتب مقالًا اعتبره الأسد نَيْلًا من شخصه؛ فأمر مخابراته

بخطفه وتصفيته،وشُقَّت بطنه وانْتُزِعَت أحشاؤه، ونُزِعَ لحم ذراعه الأيمن عن عظامه؛ليخشى نظراؤه من الصحفيين مصيرًا مشابهًا.

لكن هذه الحادثة لم تخرس صحفي لبنان، وفي مقدمتهم نقيبهم البطل رياض طه،الذي رفض مرارًا وتكرارًا مقص الرقيب السوري؛ فأصدرحافظ حكم الإعدام، ونفذته المخابرات السورية في الثالث والعشرين من يوليو 1980م،وذلك عندما أطلق مسلحون مجهولون النارعلى (طه) بِحَيِّ الروشة في بيروت الغربية.

السابع والعشرون من يوليو 1980م،اغتالت عناصرمن سرايا الدفاع التي يقودها رفعت الأسد موسى شعيب أحد قادة حزب البعث في لبنان؛وذلك لرفضه موالاة حافظ الأسد؛فوضع حافظ نهايةً لحياته؛حتى يوالي مَن خَلَفُوه الأسد وإلّا.

في الثلاثين من الشهرنفسه اغتالت سرايا الدفاع علي الزين عضوحزب البعث بجنوب لبنان؛ لرفضه سياسات الأسد الاستبدادية والإجرامية في لبنان،وفي التاسع والعشرين من مايو1981م اغتيل عضوبَعْثيّ آخرهو عدنان سنو في بيروت،وبعد ثلاثة أشهركانت مخابرات الأسد على موعد مع صيد ثمين.

مساء الثامن والعشرين من أغسطس 1981م انفجرت عبوة ناسفة في مكتب رئيس الوزراء الأسبق رشيد كرامي بطرابلس،وتفجرت موجات غضب واسعة في بيروت وطرابلس ومناطق لبنان السنية كافةً؛لما لكرامي من ثِقَل سياسي واجتماعي هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى لأن كرامي كان مؤيدًا للتدخل السوري في لبنان طالما أنه بطلب من اللبنانيين، فأصدركرامي بيانًاللرد على محاولة الاغتيال الفاشلة وَجَّهَ فيه نقدًا ضمنيًا حادًالنظام الأسد، معتبرًا أن حلمه بإقامة إمبراطورية طائفية في طرابلس بعد أن ابتلع لبنان لن يتحقق.

كان تصرف الأسد الحاقد ضد طرابلس متوقعًا لسببين:
1-انحياز أهل المدينة للفلسطينيين عندما دخل الأسد بقواته ليكسر ظهر المقاومة الفلسطينية؛ فَعَمَدَ الأسد إلى تسليح علويي المدينة؛ليكونوا ظهيرًا له فيعملياته العسكرية المستقبلية مشكلًا فرقة فرسان الجبل الأخضر، وعين لقيادتها علي عيد، وسَلَّحَهَا بالأسلحة الثقيلة وراجمات الصواريخ.

2- رفض أهل طرابلس دخول قوات الردع العربية إلى مدينتهم بعدما تصدى لهم مجلس القوى الشعبية، ومنع فرسان الجبل الأخضرمن الاندساس وسط هذه القوات والقيام بعمليات إجرامية تخدم نظام الأسد.

استمر الأسد في غَيِّه،وفي التاسع والعشرين من أغسطس 1981م اعتقلت القوات السورية المنضوية تحت لواء قوات الردع العربية تسعةً وعشرين شابًّاسُنِّيًّافي صيدا بالرغم من عدم انتمائهم لأي من التنظيمات السياسية العاملة على الساحة وقتها.

بعدما لاحت في الأفق نذر اختيار بشير الجميل رئيسًا للبنان في عام 1982م اعترى القلق الطاغية السوري؛ بعدما تأكد أن نفوذ ومصالح النظام في لبنان في طريقهما للتآكل بعدما توثقت علاقات بشير مع إسرائيل،فَجَسَّ الأسد نبض الجميل عبر حسن الخير حَمي رفعت الأسد.

حضر عن الجانب الماروني بشير الذي نقل له الخير دعوة الأسد لزيارته،لكن بشيرًا العنيد رفض هذه الدعوة؛ لأنه يعلم أنها غطاء لتَلَقّي أوامر الأسد، فَأَنَّى لرئيس الجمهورية المرتقب أن يكون منفذًا لأوامر الأسد بعد أن اشتد ساعده ورمى الأسد قبل أشهر معدودة بسهم الدولة العبرية؟

كانت هذه الواقعة هي بداية النهاية التي أفضت إلى اغتيال بشير في نهاية المطاف،وفي ذات العام عَيَّنَ الأسد أحد رجاله المخلصين والأذكياء ليكون مهندس سياساته في لبنان:

اللواء غازي كنعان.

أثبت كنعان كفاءةًفي مهامه السابقة التي أناطه الأسد بها، خاصةً المحاكم العسكرية التي أقامها نظام الأسد للإخوان المسلمين خلال الفترة بين منتصف 1979م وأوائل 1982م والتي تَرَأَّسَهَا كنعان، وأعدم خلالها ثلاثة عشر ألفًا وخمسمائة وثلاثة وأربعين من الإخوان المسلمين.

تَوَلَّى كنعان رئاسة المخابرات السورية في لبنان، واتخذ من بلدة عنجر في جنوب لبنان مَقَرًّا له،وكان يوما السبت والأحد من كل أسبوع لاستقبال المسئولين اللبنانيين من ساسة ووزراء ومدراء عامين وقضاة يعرضون مطالبهم على كنعان فيلبيها أويرفضها،وخلال تلك الفترة تَعَرَّف أبو يعرب (كنية كنعان) على رفيق الحريري.

تودد الحريري إلى كنعان، وكان يغدق عليه الأموال،ووصل الأمر إلى بناء قصر له في قرية كنعان باللاذقية،وعلى مقربة من مقر إقامته اتخذ كنعان أرضًا منبسطةً يُطْلَق عليها مصنع البصل مركزًا للاعتقال والاستجواب لمن سَوَّلَت له نفسه معارضة قبضة الأسد في لبنان.

ومن كان يخرج من هذا المكان سيء الصيت بعد أيام من التعذيب كانفي أغلب الأحيان يعمل رغمًاعنه في خدمات المخابرات السورية،وإذا رفض فالاختفاء قدره المحتوم،وفي أحسن الأحوال يتوه في غيابات سجون الأسد في سوريا.

عـاد الأسـد بعـد عـدة أعـوام لممارسـة هوايتـه فيقطـف رؤوس معارضيه،فاغتال الشيخ صبحي صالح رئيس المجلس الإسلامي الأعلىفي ساقية جنزير،وحَدَّدَ إقامة السياسي السُّنّيّ تقي الدين الصلح.

أما رئيس الوزراء الأسبق صائب سلام فقد رحل إلى المنفىفي باريس، وفي عام 1987م تواطأ الأسد مع سمير جعجع بالرغم من عدائهما على اغتيال رئيس الوزراء رشيد كرامي.

بعد عامين وفي السادس عشر من مايو 1987م،اغتالت المخابرات السورية الشيخ حسن خالد مفتي السُّنَّة بتفجير سيارته عند عودته إلى منزله،وتَفَرَّغ الأسد بعدها ليضع بصمته التي طَوَّعَت موارد لبنان لخدمة مخططاته، وحرمت أبناء البلد من خير بلادهم:
الفساد.

بـدأ فسـاد نظـام الأسـد يكشـف عـن نفسـه منـذ وطـأت قدمـه أرض لبنان،وبالتحديد في يناير 1976م،عندما اقتحم عدد من مسلحي منظمة الصاعقة متجر سبينيس ونهبوا ما بداخله وما في مخازنه وأطلقوا النار على مديرهوالعاملين فيه.

كما نهبوا مصرف (بنكو دي روما)، وسرقوا خزانته الرئيسة بما تحتويه من مجوهرات ووثائق،ثم استولت المنظمة على السجاد العجمي الشهير الموجود داخل كنيسة مارمخايل بمنطقة الشياح.

عندما دخلت القوات السورية لبنان اقتلع أفرادها قضبان السكك الحديدية الواصلة بين بيروت ودمشق وباعوها؛ تنفيذًا لأوامر أعضاء حزب البعث في لبنان الذين أودعوا مقابل البيع في حساباتهم المصرفية.

أما عن حواجز المخابرات السورية في لبنان فَحَدِّث ولاحرج،فقد كانت تفرض أتاوات على الغادي والرائح، وكان حاجز الرميلة عند مدخل صيدا الشمالي أوضح مثال على فساد المجندين السوريين.

يأخذ الضابط ضريبة ذهاب بقيمة ألف ليرة ذهابًا ومثلها إيابًا،فضلًا عما يجبيه من رسوم على كل صندوق تحمله الشاحنة،أما الضرائب على الشاحنات الكبيرة فكانت تصل إلى عشرة آلاف ليرة.

لم يجد سائقو الشاحنات اللبنانية مفرًا من دفع هذه الرشاوى؛ فالامتناع عن دفعها سيعرضهم للإهانة وبعثرة بضائعهم وتعطليهم لساعات خاصةًفي فصل الصيف، ثم سيضطرون في النهاية لدفعها رغمًا عنهم وإلا غابوا في أقبية المخابرات السورية إلى الأبد.

وكانت الحالة متشابهةً إلى حد التطابق فيما يخص السيارات المملوكة للأفراد،ومن يمتنع يذق من العذاب ألوانًا،فينزله عناصر المخابرات من سيارته عنوةً ويبعثرون محتوياتها، ويطلبون أوراق ملكيتها، ويسبون مالكيها بأقذع الألفاظ.

هذا إضافةً إلى سرقة السيارات ثم تهريبها إلى سوريا،وبعد أن ينهك ملاكها من البحث عنها في مختلف المحافظات السورية يصدر قرار بتسجيلها كسيارات سورية مملوكة لسوريين.

حتى مطار بيروت الدولي لم يسلم من النَّهْب، وكان تحت تصرف عصابة الحكم في دمشق،فَفُكِّكَت ممتلكاته ومحتوياته من سلالم كهربائية ومعدات صيانة طائرات، ونُقِلَت لمطار دمشق بأوامر من الضباط محمد غانم ومحسن سليمان وإياد أبي عيسى الذين تناوبوا إدارة المطار في بيروت.

وخوفًا من غضب الأسد،صمت وزراء الأشغال العامة اللبنانيون عن فتح ذلك الملف رغم تبعيته لوزارتهم، وتعامت شركة طيران الشرق الأوسط عن الأمر،ومن منطلق القوة وافق حافظ الأسد على توقيع اتفاق الطائف بين المتناحرين في لبنان ليضفي به شرعيةً على وجوده من مختلف الطوائف اللبنانية هذه المرة.

فَقَـد نَـصَّ الاتفـاق على أن القـوات السـورية عامـل مسـاعد للحكومـة اللبنانية على أن يعاد انتشارها بعد عامين، كما وردتعبارة في الاتفاق تراعي مصالح نظام الأسد وهي:

"مراعـاة العلاقـات المميزة بين سـوريا ولبنـان في إطار اتفاقـات في ميادين مختلفة."

ولم ينس المجتمعون في الطائف الحصول على موافقة الأسد على رئيسهم الـذي عقـدوا العـزم على اختيـاره،فزاروفـد ضـم حسـين الحسـيني رئـيس مجلس النـواب والنائب عن حركة أمل محمد بيضـون اللذَيْن فوجئا قبل الزيارة بتفضيل الأسد للهراوي كرئيس بدلًا من معوض.

ظـل الحسـيني وبيضـون يعـددان مناقـب معـوض كنائـب مخضـرم ووزيـر سـابقفي مقابـل مثالـب الهـراوي سـيء الصـيت زيـر النسـاء،فوافق حـافظ بابتسامة صفراء أخفى وراءها غضبه المضطرم.

بعد انتخاب رينيه معوض كأول رئيس للبنان ما بعد الطائف كان الأسد يعد العدة لإزاحته،وزاد من كراهية الأسد لمعوض أنه جاء للحكم بإرادة اللبنانيين وليس بإرادته هو، وكان يفضل عليه الهراوي لسببين:

الأول:انتمـاء الهراويلزحلـة المدينـة البقاعيـة التياعتبرهـا الأسـد محميـةً سوريةً يقيم بها أود نظامه.

الثاني:تحالفه مع المكونين الماروني الكاثوليكي والشيعي الإثنى عشري في البقاع الأوسط؛ لتحجيم النفوذ السُّنّيّ في البقاع الشمالي والغربي.

وكانت الحادثة التي قربت الاثنين هي قصف القوات السوريةلزحلة بين أبريل ويوليو 1981م،فقد تَرَأَّسَالهراوي وفدًا زحلاويًا للقاء الأسد، وأعجب الأسد بروح الفكاهة لدى الهراوي خاصةً نكاته البذيئة التي كانت تروق للأسد كثيرًا،وأصدر الأسد حكمه بالإعدام على معوض.

الثاني والعشرون من نوفمبر 1989م،كان موكب معوض المصفح الذي منحه له الحريريتجه لمقر الإقامة الرئاسي في شركة أوجيه الذي منحه له الحريري ببيروت الغربية،وكان يتقدم الموكب الرائد بالمخابرات السورية جمعة جمعة وهو من سيعطي الإشارة بقتل معوض.

مر الموكب على مقربة من أحد المباني حيث كانت عبوة ناسفة تزن ثلاثمائة وخمسين كيلوجرامًافي انتظاره،ففُجِّرَت عبر جهاز لاسلكي شطر السيارة ومعها رينيه معوض إلى نصفين،ووصلت بذلك رسالة الأسد للمجتمعين فيالطائف وعلى رأسهم رفيق الحريري.

جَنَّدَالحريري كل مُقَدَّرَاتِه لانتخاب الهراوي كما أراد الأسد،فازداد إعجاب الطاغية السوري بالملياردير السُّنّيّ معتبرًا إياه الرئيس القادم لحكومة لبنان، لكن كان على الحريري تجشم بعض المصاعب قبل الظفر بهدفه.